المسلمون.. وتحدّي العلم والنهضة

نحن أبناء الحضارة المؤمنة، كان من المفروض أن نبني كياننا النفسي والاجتماعي على قواعد متينة من العلم الراسخ الذي يجنبنا الوهن الحضاري، ذلك الوباء الاجتماعي الذي يعتري روح الامة فيطفئ فاعليتها ويفضي بها في النهاية إلى الموت الحضاري أي الانقراض والهلاك، وإنما تنجو الأمة بإذن الله من هذا المصير بفضل الفرقة الناجية والطائفة المنصورة التي تُحسن القراءة في جميع الاتجاهات طولا وعرضا وعمقا، قراءة واعية للذات والآخر وسنن الخلق والاجتماع وتاريخ البشرية وأساليب التغيير والإصلاح ومناهج التربية...لكنّ دورانا إلى اليوم لا يبرح حيّز التساؤلات المتحسّرة المتكرّرة: هل نحن أمّة تقرأ؟ ما أدوات القراءة عندها؟ وهل تقرأ لاقتحام ساحات العلم أم أنهاّ قراءة المستريحين؟ وأين هذه القراءة من تحدّيات النهضة وسياط العولمة وأسئلة الأصالة والمعاصرة؟ ماذا يقرأ المثقفون والساسة والدعاة والطلبة؟ بل أكاد أقول: هل يقرؤون أصلا؟ ألسنا نلاحظ أن القراءة قد أصبحت بالنسبة لنا مشكلة بدل أن تكون حلاّ، لأنها لم تعلمنا التمرد على أوضاع التخلف ولا التحدي ولا المعاكسة واجتياز الموانع فكأننا استمرأنا حالة الذهول والدهشة ولم نعد نحسّ بنبض الحياة والتوق إلى إثبات الذات؟

-

القراءة والقراءة النوعية

ما فتئ المسلمون يردّدون بافتخار أنّ أوّل كلمة أوحى الله بها إلى الرسول – صلى الله عليه وسلّم- هي: "اقرأ" وأنّ ذلك يدلّ على مكانة العلم في الإسلام ويدحض افتراءات الخصوم حول التناقض بين الدين والعلم، ثمّ يسردون آيات وأحاديث تشيد بالعلم وأهله، وكلّ هذا جميل لكنّه يبقى أقرب إلى التشبّع الذاتي الأجوف، بل والخدعة النفسيّة الّتي تجعل أمّة تراوح مكانها – وربّما تتراجع – وهي تظنّ أنّها ترضي ربّها لأنّها تعتزّ بآية أنزلها! إنّ حالنا مع العلم لا يحتاج إلى توصيف لوضوحه الكامل وإنّما يستلزم العلاج، ومشكلتنا مع العلم معقّدة، ولعلّ أوّل خيوط التعقيد أنّ المصلح ليس أمام معضلة تعليم من لا يعرف ولكنّه يواجه طامّة كبرى هي إقناعه أنّه لا يعرف، وقد انتشرت الأميّة الفكريّة – فضلاً عن الأميّة ذاتها- حتّى عمّت الجامعات والمعاهد وشملت حملة الشهادات العليا إلاّ قليلاً من روّاد وخرّجي المؤسّسات الراقيّة والعلماء الراسخين في كلّ التخصّصات، ولك أن تقرأ ما ينشر من كتب ومقالات وما يلقى من خطب ودروس ومحاضرات لتتأكّد من هذه الحقيقة، ذلك أنّ التوجيه الربّاني الأوّل الّذي لم يشر إلى أيّ عبادة أو خلق أو سلوك بل أشار إلى مفتاح العلم إنّما يقصد القراءة الجيّدة الّتي تؤدّي إلى تحصيل المعرفة الجيّدة، لكنّنا ما زلنا نقرأ كثيراً ممّا لا ينفعنا ولا ينهض بمستوانا العقليّ، فلا بدّ إذاً من الارتقاء بنوعية ما نقرأ حتّى نصل إلى القراءة المثمرة الّتي تزيد رصيدنا من المفاهيم المتعلّقة بحسن الفهم عن الله ورسوله من جهة والنهوض الحضاري من جهة أخرى، أي يجب علينا أن نوسّع قاعدة الفهم وتحسين إمكانات التفكير لتمهيد الطريق السليم للاجتهاد والإبداع، ولأنّ ذلك يتيح الانفتاح على الجديد والمغاير من الأفكار والفلسفات.

ولا يستطيع منصف إنكار أنّ بعض الآراء والأقوال "العلمية" وعلى أكثر من مستوى هي مجرّد إضافات مَرَضِيّة من شأنها أن تجذّر حالة مَرَضِيَّة نعاني منها منذ أمد بعيد، تجدها بكثرة في ميدان الفتوى والتوجيه الديني كما تجدها عند العلمانيين الّذين يردّدون مقولات غربية قديمة وكأنّها أفكار "آخر صرخة" خرجت لتوّها من المخابر! ويعود كلّ ذلك إلى القراءة السطحية المتعجّلة التي ألفناها ونحن نقنع أنفسنا أنّنا قرأنا فأدّينا ما علينا، وينعكس على ما يكتبه المؤلّفون الّذين يميل أكثرهم إلى مجرّد التكرار المملّ وتسويد القراطيس بعيداً عن أهداف الكتابة العلميّة والكتابة النافعة، وبهذا دخلنا الدوّامة التي تعصف بنا، ولو أحسنّا القراءة والكتابة لفتحت لنا آفاق أرحب ولرفعنا مستوانا وقدّمنا إضافاتنا النافعة للحضارة، ولخدمنا قبل ذلك ديننا الّذي أمر كتابه بالقراءة وأقسم ربّه – عزّ وجلّ- بالقلم لا بالسلاح، وجعل اسم إحدى أوّل السور نزولاً: "القلم"... ولكنّ الرشاش الناري عند إنسان التخلف أصدق من الكتب والأقلام!

قراءة تحرسها أخلاق

ولا تقف معاناتنا مع العلم عند هذا الحدّ بل هناك مظهر سلبيّ آخر هو عائق كبير يتمثّل في انفصال العلم عن الأخلاق، وما أصدق ابن عطاء الله السكندري حين قال: "خير العلم ما كانت الخشية معه"، وقد استقى الحكمة من قول الله تعلى: "اقرأ باسم ربّك... اقرأ وربّك الأكرم" [سورة العلق 1-3]. فالقراءة المطلوبة – أي العلم النافع- ما ارتبطت بالأخلاق، فماذا يفيد وجود الجامعات ومراكز الأبحاث مع انتشار الانحطاط الخلقي والفساد الإداري؟ إنّ العلم الّذي يزيّن الحياة هو ما كان في حراسة عقيدة وأخلاق... فهناك ردّة حقيقيّة إلى الجاهليّة تحتّم علينا اللجوء إلى العلاج الأوّل، ذلك أنّ العلم الّذي احتفى به الإسلام قد حوّل مركز السلطة في حياة العرب من القوّة إلى المعرفة أي من البهيمية إلى العقل ومن الظلم إلى العدل ومن الهمجيّة إلى النظام، فلمّا استوت الأخلاق على صرح العلم وارتقى العلم إلى عالم الأخلاق رأينا الحكّام يرضخون للعلماء، فانظر الآن إلى الانتكاسة الرهيبة وتوسّع رقعة استرقاق العلم والعلماء بناء على القاعدة الّتي دشّنها سحرة فرعون "إنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين؟" [سورة الأعراف 113].

ولا تخفى على عين المراقب الحصيف ظاهرة تسميم الاكتشافات العلمية المتنامية لمنابع الإيمان وتشويهها المقصود أو العفوي لصورة الدين في أعين معظم الناس لظنّ عبّاد الدنيا أنّ هذه الفتوحات العلمية كفيلة وحدها بحلّ مشكلات الإنسان المادية والنفسية فلا حاجة له معها إلى "ميتافيزيقيا "، ولو أحسن المسلمون القراءة والكتابة لنجوا من هذه المعادلة الخاطئة و لأبرزوا للبشرية دور الروح في تسيير دفة الحياة في تناغم كامل مع المادة.

اقرأ واكتب فأتقن..

يوغل بعضنا في النقد الذاتي إلى درجة جلد النفس، وينبهر آخرون –أو هم أنفسهم – بكلّ ما هو غربيّ حتّى يلغوا ذواتهم ويفقدوا مقاييس الحكم على الأشياء والأفكار والوقائع ويتيهوا في أخطاء فظيعة بغير تمحيص، من ذلك ما نردّده من أنّنا لا نقرأ في حين أن الغربيين لا يتوّقفون عن القراءة، ومع إقرارنا أنّ القياس بيننا وبين البلاد المتقدّمة هو مع الفارق – بل قد لا يوجد مجال للقياس – إلاّ أن الحقائق تقول إنّ الناس هناك يقرؤون كثيرا لكنّ جلّ قراءتهم تدور بين الروايات البوليسية والقصص الغرامية، والفرق الوحيد بيننا وبينهم في هذا المجال–وهو هائل- أنّ أرباب القراءة عندهم هم – بالأساس- الجامعيّون والساسة أي النخبة التي تقود المجتمع ثقافيا وسياسيا، أمّا الحال عندنا فيمكن أن تلحظه في زعيم يتعذّب وهو يقرأ خطابا كتبوه له يتتعتع في تهجية حروفه مع أنّه على كرسي الحكم من المهد إلى اللّحد...وكثيرا ما يقضي أستاذ حياته كلّها في الجامعة ويتقاعد منها وهو لم يؤلف كتابا واحدا وربما لم ينشر مقالة صغيرة في تخصصه فضلا عن القضايا العامة، فكيف يكون حال طلبته؟ وانتشار الرداءة في ساحة الثقافة دليل إضافي على التخلف، لان الحالة الصحية فيها معاناة إنضاج الافكار ثم الانتقال إلى معاناة مكابدة الواقع السياسي وتحويل الافكار إلى برامج والعمل على الاقناع بها و تنفيذها.

والحلّ؟ أمسك بالكتاب النافع، اقرأ نوعيّا وأحسن القراءة، وأمسك بالقلم واجعله سلاحك وخطّ به الكلمة الصادقة المعبّرة عن فكرة نافعة في الميادين الشرعية أو الإنسانية أو التقنية.. بهذا نرفع تحدّي العلم ونسهم في النهضة المأمولة.